



إنا لله وإنا إليه راجعون...

كان من عادتي أن أكتب عن شيوخي ومعارفي ممن له قدمه في الإسلام بعد وفاتهم، إلى أن أصابني العجز والضعف عند وفاة شيخي الجليلين زهير الشاويش، ثم محمود شاكر الحرستاني، رحمهما الله تعالى، وأفعدني عن ذلك جل المصاب الخاص بي قبل المصاب العام، وأعترف أنني تهبتُ وعجزت، وقصّرت!

ولكن بالأمس انتقل إلى رحمة الله أخونا وزميلنا العزيز الشیخ الفاضل والقائد المجاهد أبو عبد الله، محمد زهران ابن الشیخ عبد الله علوش، الحسني، الدومي، الحنبلی الأثري، حيث استشهد وهو في أرض الرباط والجهاد بغوطة دمشق المباركة، إثر استشهاده بقصف روسي غادر بعدة صواریخ، مع ثلاثة من رفقته المجاهدين، عصر الجمعة 14 ربیع الأول سنة 1437، عن 47 سنة.

بكّت القلوب قبل العيون منذ صدمي الخبر، ونازعوني نفسي أن أحاول معه بعض الوفاء لحّقه الخاص والعام بالكتابة بعد استشهاده، فأرجو أن يكون فيما أكتب شيء من أداء الواجب لفقيد المسلمين.

عرفتُ الشیخ أبو عبد الله من فوق عشرين سنة، شاباً يتقدّم غيرة وحباً للدين، وهو الذي رضع التدين والسنّة منذ نعومة

أظفاره، فوالده الشيخ عبد الله علوش - حفظه الله وعظم أجره - من قدماء أصحاب الإمام الألباني ورواد المدرسة السلفية في دوما، وأخذ عن عدد من الأعلام كالشيخ العالم السلفي عبد الفتاح الإمام، ودرس في الرياض وهو شاب على كبار العلماء في العقد الثامن من القرن الهجري الماضي، مثل المفتى محمد بن إبراهيم آل الشيخ، وابن مهينز، وابن باز، ودرس في السعودية، ثم رجع إلى بلده داعية للسنة، وافتتح معهداً لتدريس القرآن وعلومه في دوما، وكان له أثره هناك.

ولد الفقيد سنة 1390 (يوافقها 1970م)، وأسماه والده اسماً مركباً محمد زهران (على اسم قبيلة زهران العربية المعروفة، حيث درس حيناً وكانت له ذكريات طيبة)، وتربي على يد والده، ودرس القرآن ودرسه وهو شاب، ونشأ ابن المساجد في دوما مستقيماً الشأة، وتخرج من الثانوية، وكان آنذاك رياضياً بطالاً في رياضة الكاراتيه، ودخل كلية الشريعة في جامعة دمشق، ودرس فيها سنة فقط، ثم تركها وسافر للدراسة في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ودخل كلية الحديث، وتخرج من الكلية سنة 1414 (وليس صحيحاً أنه حصل الماجستير أو تخرج من دمشق كما ذكر بعضهم). ومن خواص رفقائه فيها الشيخ الدكتور عمر بن سليمان الحفيان.

وفي مدة مكثه بالمدينة، تردد على دروس العلماء، مثل المشايخ: حماد الأنصاري، وهو عمدته هناك، وعبد المحسن العباد البدر، وعبد الله الغنيمان، وعبد الرحمن الحذيفي (وهو تلميذ أبيه لما درس في معهد بلجرشي)، ومحمد بن محمد المختار الشنقيطي، واللغوي أحمد دو الشنقيطي (وليس ابن الددو الموجود الآن كما توهם بعضهم)، وكان كثير التردد والتواصل مع سماحة الشيخ ابن باز، وله معه علاقة خاصة امتداداً لعلاقة والده، وكان يعينه على بعض الأعمال الدعوية، وتردد شيئاً على ابن عثيمين، وغيره، مثل الشيخ محمود شاكر الحرسناني ومحمد بن لطفي الصباغ.

رجع لبلاده بعد التخرج، وكانت له جهود دعوية وتدريسية، إضافة لأعماله الحياتية الخاصة، ولا سيما في بيع العسل، **وله تردد على بعض العلماء، ولا سيما الشيخ عبد القادر الأرناؤوط، وتزاملت معه في الأخذ عنه وعن غيره، ومنهم زرنا معاً واستجذنا المشايخ:**

عبد الغني الدقر، وعبد الرحمن الشاغوري في دمشق، وأحمد سردار في حلب، وعبد الله بن عبد العزيز العقيل في الرياض، وسمع منه أطراف السبعة.

وأجاز له جماعة من العلماء في البلدان سوى من سميت قريباً، مثل:

زهير الشاويش وأحمد الكعكة وأحمد نصيبي المحاميد في الشام ، وعبد الرحمن الملا وعبد الرحمن الكاف ومحمد الشاطري ومحمد علي المراد وعبد الفتاح راوه وعبد الله الناخي وعبد القادر البخاري ومحمد شاكر الحرسناني ومحمد السبيّل ورشيد القيسى في السعودية، ومحمد المنتصر الكتاني، وعبد العزيز الغماري، وعبد الهادي المنوني في المغرب، ومحمد الشازلي النيفر في تونس، وعبد الرؤوف الرحمنى وعبد العزيز الأعظمى وعبد القيوم الرحمنى في الهند، وأحمد زبارة وعبد القادر شرف الدين والأسد حمزة الأوسى في اليمن، ومحمد سعد بدران في مصر، وغيرهم كثير، يزيد عددهم على المئة، وبضم شيخات، مذكورون في ثبته المسمى: **الروح والريحان**، بتأريخ العبد الفقير.

ومن جهوده التدريسية كان أخبرني منذ سنوات أنه أتم شرح صحيح مسلم.

كان رحمه الله متربقاً على حال أهل السنة، خصوصاً في بلده، وتعرض لمضايقات أمنية عديدة مدة وجوده هناك، مع تردداته الدائم للسعودية حيث كانت له إقامة فيها.

وكانت له نظرة بشخصية بعيدة عن حتمية الصدام في البلد، ويقول لا نريد إذا حصل شيء أن يذبح المسلمون وهم عزل كما حصل بالبوسنة، فكانت له رؤيته الخاصة في ضرورة الاستعداد والتدريب الشخصي، قبل الأحداث الحالية بمدة، إلى أن

ُقبض عليه بتهمة حيازة الأسلحة وممارسة النشاط الإسلامي سنة 2009م تقريباً، وأودع سجن صيدنايا سيء الصيت، وكان الاتجاه للحكم عليه بالإعدام، وشارك في عصيان كبير بالسجن، ولكن لطف الله حيث تأخر الحكم عليه، وصدر عفو رئاسي بعد سنتين فشلته ذلك، وخرج من السجن، وعلم فور خروجه بوجود مذكرة اعتقال جديدة فتخفي مباشرة.

وكانت الثورة الوليدة قد بدأت بالمنحي السلمي، إلا أن الشيخ كان على فكرته الأولى، ولا سيما وقد توجه أمر الصراع، فأسس سرية الإسلام مع عدد قليل من الشباب، وبدأت لها عمليات وانتصارات، حتى باتت قوة في منطقته، وتوسعت وانضمت لها عدة جماعات بعنابة الله ثم بما نحسبه من إخلاص كواذرها إلى أن صارت أكبر القوى للمجاهدين هناك، ومن أكابرها في سوريا، فصار الاسم لواء الإسلام، ثم جيش الإسلام، وتوسعت عملياتهم وزاد انضمام الوحدات الأخرى لهم تحت إمرته، ودخلوا في الجبهة الإسلامية بما يعرفه متابعوا الأحداث، فصار أحد أبرز القيادات وأكثرها تأثيراً.

كان الشيخ يقول: أنا أكثر ما يهمني في الثورة التمكين للإسلام والسنّة. ويعتبر العمل العسكري موازياً لنجهه الدعوي. وليس صحيحاً مطلقاً ما ذكرته بعض الكتابات أنه سبق وأن قاتل في العراق.

* وللتاريخ فقد كان قبل نشوء الجماعات التكفيرية على ساحة الجهاد الشامي بنحو سنة يحذر من انتشار أفكارهم، ويطلب من بعض المشايخ المشاركة في الجهد للتوعية والتصحيح والتحذير، ويقول هؤلاء يخزنون السلاح ولا يقاتلون النظام ولهم دعمهم، وإن خرجنوا إلا على المجاهدين، وحصل ذلك كما تجسس، ولهذا كان من أولوياته مكافحتهم وتطهير الصف الجهادي منهم، ولا سيما لكتلة من اغتر بشعاراتهم ونشاطهم الإعلامي من المغرر بهم والأحداث، ومما أخبرنا أنه ناظر بعضهم وقال لهم: لم لا تقاتلون النصيرية وهو كفار وأعداء مشتركون اتفاقاً؟ فإذا فرغتم نتفاهم بيننا؟ فجاء الرد: هم كفار أصليون، وأنتم مرتدون، فقتالكم أولى منكم!

ولهذا لم يكن يتسامل معهم أبداً ولا مع غيرهم من المتساهلين بدماء المسلمين، وناله من حربهم وتشويههم وافتراضهم ما ناله.

* وإنني لأعجب منمن يتسامل بالوقوع في عرض هذا المجاهد العظيم وغيره بأعظم التهم التي وصلت للعمالة به الردة، ويكون مستنده القيل والقال، وأخبرني توير والفيض يوك عن المجهول عن مثله معيلاً؟ فلا تم تطبيق منهج أهل الحديث في قبول الأخبار، ولا حضر الورع، وتغيب الشرع!

وكم مرة تأكّدت منه - أيام كان ثمة اتصال - ومن أقرب الناس له عن بعض التهم التي اتهم بها، ومن تبعية الجهة الفلانية والعلانية، فأقسم بالله إني وجدت ذلك كله كذباً وافتراء عليه، وكم قال بعض رؤساء المجاهدين بالشام إنهم لا يعلمون شخصاً افترى عليه هناك مثله رحمة الله.

وما كنت لأترك يقيني ومعرفتي التامة له لشك مصدره مجاهيل، وأدين الله بهذا المنهج معه ومع غيره، وأشدد على ذلك لأنني رأيت بعض الفضلاء متأثراً بما أشيع حوله، والله المستعان.

* أشهد على الرجل أن همه كان نشر السنّة ونصر الإسلام، وأنه كان منذ عرفته إلى أن حالت الظروف دون التواصل معه في المدة الأخيرة كما هو في غيرته الكبيرة وهمته للسنّة وسعيه لنصرتها، وأسأل الله أن يتقبله وعمله، وأن يبارك في استمرارية جهده وتحقق أمله، وأن يسامحني على التقصير الخاص والعام معه، فلو أردت أن الخص حال الرجل منذ عرفته إلى أن حيل بيننا: فهو الإخلاص والحرق الجاد لرفعة الإسلام.

* أعلم يقيناً عن الرجل أنه تمت مساومته مرات مقابل تنازلات وشراء ولاءات فكان شامحاً راسحاً لم يرضخ، وأظن ذلك من أسباب استهدافه أنه لم يكن يرضى أن يتبع لأي جهة، حتى آخر مؤتمر كبير للمعارضة أعلن انسحابه من قراراته لما رأى نتائجها وأنها تفرض اتجاهات غير شرعية.

* **مما يعرفه عنه المقربون منه أنه كان يصر على اقتحام الخطوط الأمامية، ويشارك بنفسه في القتال**، رغم محاولات القيادة **ثنيه عن التعرض المباشر للخطر**، ولهذا كان من شهادات الآخرين أنهم لا يعرفون قائداً يتحرك في الداخل مثله، وقد كان دائم التصريح أنه يبحث عن الشهادة ويتعارض لها، وأنه لا خوف على الجيل القادم بعد أن كسر حاجز الخوف واستنصر بالله، وتربي على العقيدة.

* **مما أعرفه عنه أنه كان شديداً في ذات الله، ولا يحابي أو يداهنه فيه**، ومع هذا فأسهل ما يكون منه التراجع إن علم خطأ، ومرة كان يقرر مسألة على بعض الإخوة، وبعد انقضائه وصله رد علمي من أحد زملائه، فما كان منه لما علم بذلك إلا أن التفت للإخوة قائلاً: **لقد كنا في ضلال مبين!**

وكان إلى جانب شخصيته النافذة له جانب من الدعاية مع إخوانه، حلو المفاكهة والمجالسة، وله سرعة بديهية وأجوبة مسكتة حاضرة! وكان خطيباً مفهراً، يحب استخدام الفصحي في حديثه دون تكلف.

* **كان مع ثباته على السلفية يتعاون مع المخلصين من المدارس الأخرى**، وأنذر مرة حصل خلاف مع زميلنا الشيخ الشیخ العالم الشهید ریاض الخریقی فی جوب، واعتدی علیه بعض الناس، وأوصل له الخبر فانزعج له، وأعلم أنه حزن للغاية لما استشهد أخونا الشیخ ریاض رحمة الله.

* **من أعماله المهمة أنه تعاون مع المخلصين حوله لإنشاء مكاتب متخصصة للأمور العلمية والدعوية والقضائية والجهادية والإرشادية**، فكان جيشه عملاً مؤسسيّاً، وكان حرص الشهید ومن معه على مشروع التصفيّة والتربية، ويردد دائماً: نحن مشروع أمة.

* **وأعلم عنه جيداً توكله وصدقه ولحوئه لله مع قلة المعين**، وأنه كان يحرص في هجماته على عدم إعطاب الآليات لغنىمتها، فكان غالباً تسلیحه من الغنائم، والشيء بالشيء يُذكر، أعلم عنه شدة حاجته وبدئه بالإيثار على نفسه وأسرته، وبحكم وجود قرابة أسرية من جهة أسرة زوجتي أعرف أخباراً كثيرة في هذا - ولا أكتم سراً إن قلت إنه سبق أن خطب إلى ولكن ما قدر الله ذلك - وقد زارت إحدى قريباتي مؤخراً زوجته التي تقربها، فلم تر عندها إلا حسراً على الأرض وبضع وسائل هي فرش بيته كما أخبرتني، وما كان يمد يده على مخصصات الجيش مع كونه القائد، ومن شهد له بذلك الشیخ أحمد معاذ الخطیب في مقاله عنه.

* **كانت له مكتبة لا يأس بها في دوما، وكانت الكتب التي جلبها مع مكتبة أبيه منها** **وازداً للشباب المؤمن** هناك مع قلة وصول الكتب الشرعية السلفية وتضييق الخناق عليها، وأنا من استفاد منه، بل أول كتاب أخرجه محققاً - وهو الأربعون لأبي بكر ابن المقرئ - هو من أعطاني مصوريته الخطية، جزاه الله عني خيراً، ولكن هذه المكتبة تمت مصادرتها من الجهات الأمنية!

* **جرى استهداف الشهید أكثر من مرة، ولكن نجاه الله، وقاد معارك كبرى بنفسه**، وحررت قواته مناطق كثيرة، وأثخن في أعداء الإسلام والوطن، وبقي ثابتاً مربطاً إلى أن أصيب في استهداف مباشر بقصف روسي وهو يتفقد المواقع في الجبهة المشتعلة، هذا هو الخبر الصحيح، لا كما أشيع من أنه كان في مقر سري، وحقق الله أمنيته المعلنة من الشهادة، وأما الجناء الغاردون والملادحة الظالمون فنبشّرهم بأن الأمة منصورة والنصر المحتم قادم بأرض الشام، فسلطاط المسلمين القائم، وإنما هؤلاء يحاولون تأخير الأمر بكيدهم ومكرهم، وما كان الدين قائماً بشخص ولا قائد مهما عظم، وإنما الدين بموت محمد صلى الله عليه وسلم، ولكن الدين منصور، والسعيد من اصطفاه الله لنصرة دينه، ولم يكن مجرد رقم سلبي في تعداد المسلمين!

والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

* إن لنا أكبر عزاء فيما رأيناه من انتشار القبول لك يا أبا عبد الله في البلدان، وحزن المخلصين والعلماء والخاصة وال العامة بك، ورأيت في تعزيتك بالرياض الأم تأتي زرافات ووحدانا من كبار العلماء والدعاة فمن دونهم، ما ساقتهم مصلحة ولا أمر سلطان، وقرأنا من حزن كافة أطياف الأمة ورثائها ما يدل على القبول، ومثله فرحة الملاحدة والنصرية والرافضة وأذنابهم والغلاة، وكان اصطفافهم وتوحد فرحتهم أكبر دليل على نظافتك وسلامة منهجك!

* رحمك الله يا أبا عبد الله، نعزي فيك أنفسنا، ونعزي والديك وأسرتك وزويك ومحبيك وعموم المجاهدين، ونستبشر لك لدعوتك ولأمتك الخير، فإن دماء المجاهدين تروي الأرض المتعطشة للنور، فتنت جيلا يستظل بخيراتكم وزر عكم وحرثكم!

جعلني الله وإياكم من المتحابين في الله، الذين اجتمعوا عليه، وافترقوا عليه، وجمعني بك في الفردوس الأعلى.

كتب هذه الخواطر المرتجلة محبه

محمد زياد بن عمر التكلا

في الرياض 1437-3-15

المصادر: